الجزء الرابع المجلد الثالث والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

محرم الحرام ١٤٠٣ هـ
تشرين الأول ١٩٨٢ م

عقبات مفتعلة في طريق التعريب

الدكتور جميل الملائكة
(عضو المجمع)

استقطب موضوع التعريب في العقود الثلاثة الاخيرة من السنين اهتمام الكثير من المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية والاستطلاعات ، وكتب فيه من البحوث والمقالات ما تناول جميع جوانبه حتى لم يكد يبقى منه زيادة لمستزيد . ومع استمرار ظهور صوت معارض أو مشكك بين الحين والآخر ، تكاد تجمع التوصيات والنتائج التي خرج بها الرصين المستكمل عدته من هذه المؤتمرات والندوات والاستطلاعات على وجوب الشروع والمضي قدما في التعريب ، وان اختلفت التفاصيل في أسلوب التنفيذ .

وتجدر هنا الاشارة الى أن الأعم الأغلب من هؤلاء المعارضين لم يقولوا بعدم جدوى التعريب . غير أنهم كانوا في كل مرة يناقش فيها هذا الموضوع خلال ثلاثين سنة مضت ، وخلال سنين طويلة قبلها ، يحتجون بضرورة التريث بضع سنوات ريثما تتوفر المصطلحات ، أو ريثما تترجم الكتب أو تؤلف . وهكذا مرت السنوات تلو السنوات واتضح بما لا يقبل الشك أن التريث بعد التريث لا يؤدي الى انجاز شيء وانه ليس اكثر من أسلوب في التسويف والتعويق والتواني .

لقد أمر الخليفة المأمون بنقل علوم اليونان والهند الى العربية فلم يقف التراجمة مكتوفي الايدي ريثما تتوفر المصطلحات ، بل عملوا حثيثا في الترجمة ، وكان أن تحققت في زمنه نهضة علمية عظيمة . وقد أرسل محمد علي في القرن الماضي

البعثات الى فرنسا وكلف الخريجين حال عودتهم الى مصر بتأليف الكتب العلمية باللغة العربية فلم يثيروا مشكلة مصطلحات ، ولم يعتذروا بقصور العربية عن التعبير العلمي ، بل بقيت كتبهم الجليلة التي أخرجتها مطبعة بولاق في الطب والصيدلة والهندسة والعلوم شواهد على انجازاتهم الرائعة .

وقامت سورية بحملة في التعريب منذ نهاية الحرب العالمية الاولى فلم يمض عامان حتى تم تعريب التعليم في جميع مراحله بهدوء وبدون ضجة ، عدا بعض الكليات العلمية التي طبق التعريب فيها في أواسط الاربعينيات ، ولم يزل كله كذلك حتى اليوم . وقد الف وترجم خلال تلك الحقبة الطويلة عدد كبير من الكتب النفيسة في مختلف حقول المعرفة . ومثل ذلك يقال في الجامعة الاردنية التي تسير التدريسات فيها باللغة العربية وقد نشطت فيها حركة دائبة في اعداد الكتب العربية تأليفاً وترجمة بالتعاون مع مجمع اللغة العربية الاردني .

وسار التعليم العام في العراق منذ بدء الحكم الوطني باللغة العربية وألّفت له الكتب الكثيرة واستمر وما زال كذلك منذ اكثر من ستين سنة من دون صعوبة تذكر . ومثل ذلك يقال في تدريس العلوم الانسانية في جميع كليات التعليم العالي في العراق منذ انشائهافي ثلاثينيات هذا القرن وأربعينياته . وكان القرار الجريء الذي اتخذته حكومة الثورة في العراق بتعريب تدريس العلوم الصرفة والتطبيقية والتقنية في كليات التعليم العالي ومعاهده ابتداء من العام الدراسي ١٩٧٧ — ١٩٧٨ وما حققه من نتائج باهرة ، دليلا ناصعاً على بطلان حجج أصحاب الارجاء والتسويف لقد ألزم القرار البدء بتدريس صفوف السنة الاولى باللغة العربية في العام ٧٧ —٧٨ ، وأن يشمل التعريب صفوف السنة الثانية في العام الذي يليه ، وهكذا لم ينقض عام ٨٠ — ٨١ الا وقد أنجز تطبيق التعريب في جميع صفوف الدراسة العالية وتخرجت أولى دوراته . وقد فرض في الوقت عينه تنفيذ برنامج صارم محكم في تأليف الكتب العلمية وترجمتها فتوفر حتى الآن مئات من الكتب الدراسية المقررة

والكتب المساعدة وبعض كتب المراجع ، والعملية مستمرة . ولم يفت الجهات التي خططت للعملية الاهتمام للغة الاجنبية الحية لضمان الانفتاح على العلوم والثقافة العالمية . ومن ذلك أنها جعلت اللغة الانكليزية العلمية من ضمن المواد المنهجية التي على الطالب دراستها والنجاح في امتحاناتها في السنة الاولى من الدراسة العالية او السنتين الاوليين في بعض الكليات ، وأنها فرضت على الكليات والمعاهد تدريس مادة علمية واحدة باللغة الانكليزية في كل فصل من فصول الدراسة ، وأنها ألزمت الطالب حفظ المصطلح الانكليزي اضافة الى المصطلح العربي لتمكينه من قراءة كتب المراجع والمتابعة العلمية .

لقد أشرفت على التخطيط للتعريب في العراق هيئة عليا حددت القواعد الواجبة الاتباع في التنفيذ ، وأنشئ لذلك مركز للتعريب يتابع العملية مركزياً وينسقها ويضع الدراسات والتقارير ويعد لوائح التشريعات في كل ما يتعلق بالتنفيذ . وألفت لجان علمية في الاختصاصات الرئيسة المختلفة تختار باشراف المركز المؤلفين والمترجمين من بين مرشحي الجامعات وتسمي كتب الترجمة والتأليف على وفق المناهج المقررة . والفت كذلك لجان فرعية في الجامعات والكليات والمعاهد لمتابعة العملية التي جرت بانتظام ، وما زالت سائرة كذلك ، في درب ذي اتجاه واحد لا عودة فيه ، فهو عين الطريق الذي سلكته عملية تعريب التعليم العام في العراق وتعريب العلوم الانسانية سابقاً .

وأود أن أشير باختصار الى مالمسته في تجربتي الشخصية في هذا الموضوع وأنا أمارس التعليم الجامعي منذ أربع وثلاثين سنة أمضيت ثلاثين منها في تدريس عدة موضوعات باللغة الانكليزية ، ومنها مادة اختصاصي في ميكانيك الموائع ، ومارست تدريسها في السنوات الاربع الأخيرة منها باللغة العربية . لقد وجدت بما لا يقبل الشك أن ما يستوعبه الطالب بسهولة ويسر في ضبطه لمادة المحاضرة الملقاة باللغة العربية يزيد ويربي كثيراً على ما كان يتمكن من استيعابه منها وهي تلقى باللغة الانكليزية ، حتى بات في الامكان التوسع في المنهج واغناؤه بالكثير من

المادة المفيدة . ويصح القول نفسه على السهولة التي يجدها الطالب في قراءة المادة في الكتاب العربي اذا قورنت بما يعانيه في مطالعة كتاب انكليزي وكثرة ما يشكل عليه فهمه من تعابيره وتراكيبه الغريبة عليه ، فضلا عن مضاعفة الوقت الذي تتطلبه القراءة والمتابعة بلغة أجنبية .

ولو حاولنا أن نستعرض تاريخ بدء الكلام على تعذر التعريب وصعوباته لوجدنا انه لم يبدأ الا في مطالع هذا القرن ، في عين الوقت الذي لاحظ فيه الاستعمار بوادر نهوض الامة العربية بعد سباتها الطويل وشروعها باصلاح احوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية . أفلا يدعو هذا الى الكثير من التأمل والتفكير ؟

لقد قال المشككون بأن المشكلة مشكلة مصطلحات ولا بد من التريث والانتظار الى حين توفر المصطلحات . ومر زمن طويل شغلت فيه المجامع اللغوية والهيئات العلمية نفسها بوضع المصطلحات حتى أعدت منها الشيء الكثير ، ولكن عملية التعريب لم تنفذ ، وبقيت المصطلحات طيّ الكراريس والكتب .

واذ عاد الناس يطالبون بالتعريب احتج المشككون هذه المرة بمشكلة جديدة : قالوا لقد تعددت المصطلحات وكثرت ولا بد من التريث ريثما يتم توحيد المصطلحات . وهكذا شغلت المجامع والهيئات العلمية نفسها ثانية بعملية التوحيد ، وبلغت فيها شأوا بعيدا .

وتعددت الحلقات العلمية والندوات والمؤتمرات تتدارس المصطلحات وتعمل على توحيدها وتصدر مجاميع المصطلحات الموحدة. ولكن الامر المهم الخطير الذي بقي ، هو أن المشككين باقون على الاعتذار بمشكلة المصطلحات وبمشكلة تعدد المصطلحات ومستمرون في الاصرار على التريث في التعريب . انها حقاً لعبة ساذجة ومفضوحة ، ولكن ما الفائدة من وضع المصطلحات اذا لم تستعمل ؟ وكيف توحد المصطلحات وهي لم تستعمل بعد ؟ ومن ذا الذي يضع المصطلح ويوحده غير أهله من العلماء وأهل العلم ؟ وهل سمع أحد بقطر من أقطار العالم أو أمة من الامم شغلت نفسها ثلاثين عاما او خمسين عاما في وضع المصطلحات

وفي الجدل في المصطلحات وتوحيد المصطلحات لانها على نية استعمال لغتها القومية في التعليم ؟ ان أهل العلم في أقطار العالم هم الذين يصطلحون بالمفردة على المدلول العلمي . والاستعمال وحده هو الذي يوحد المصطلحات وهو الذي يبقي الجيد وينبذ الرديء . أما المجامع وأهل اللغة المختصون في بلاد الله فهم يساعدون في المبهم من هذه الاشياء وهم المرجع فيما يشكل منها .

وثمة اقطار كثيرة تستعمل لغاتها القومية في التعليم وهي ليست أعرق ولا أغنى من اللغة العربية . فهل تلكأت جامعات الصين واليابان وروسيا وهنغاريا والبرتغال وعشرات غيرها من الدول في استعمال لغاتها القومية في التعليم وبقيت تنتظر الى حين قيام المجامع والهيئات اللغوية بتسليمها المصطلحات العلمية الموحدة كاملة غير منقوصة ؟

لقد عبر المشتغلون بعلوم المياه عن المساحة التي تسهم في تجهيز المياه الى نهر بأوجه مختلفة في اللغة الانكليزية . فمنهم من دعاها Watershed ومنهم من سماها drainage area وسماها آخرون drainage basin ودعاها غيرهم catchment area واصطلح بعضهم على تسميتها gathering ground (١) وهي خمسة مصطلحات لمدلول واحد بعينه . فهل كان ذلك حقاً مما اخر مسيرة العلم عندهم او مدعاة لوصف لغتهم بالضعف والخلل ؟ لا أعرف ان ثمة جهة واحدة لها السلطة المطلقة في توحيد هذه المصطلحات ، وكثير غيرها . فمن المعروف ان عندهم الكثير من الجمعيات والهيئات والمؤسسات والاتحادات العلمية والجامعات والمعاهد ومراكز البحث واجهزته

(١) أنظر : هذه المصطلحات في :
"Nomenclature for Hydraulics"
American Society of Civil Engineers, New york, 1962 : اصدار
وفي : "A Dictionary of Civil Engineering"
John S. Scott, Penguin Reference Books, London, 1967 : إعداد

والدوائر الحكومية والشركات الكبيرة التي تدعم اعمالها بالابحاث والتطوير . ومسيرة العلم لا يمكن ان تتوقف والمصطلح لا يمكن له ان يتوقف او ينتظر . ولكن ثمة سلطة واحدة غير منظورة هي التي توحد المصطلح . تلك هي الاستعمال . فالاستعمال وحده هو الذي يغربل ويختار الافضل في الآخر .

وقد كان مهندسو المياه الانكليز منذ زمن يستعملون مصطلح roughness أو مصطلح rugosity للدلالة على خشونة سطح يتحـــرك مائع بازائه . ولكن الاستعمال هو الذي أزال المصطلح الثاني وأبقى الاول .وكانوا يستعملون مصطلح hydraulic mean depth للدلالة على حاصل قسمة مساحة القناة على محيطها المبلول في حين استعمل الامريكيون للمدلول عينه مصطلح hydraulic radius وقد بقي كلا المصطلحين قيد الاستعمال ردحا طويلا من الزمن الى أن أزال الاستعمال المصطلح الاول واستبقى المصطلح الثاني .

اننا على أية حال نبالغ في خطورة توحيد المصطاح فنجعل منهامشكلة عويصة على الرغم من أنها ليست كذلك . لقد قال العرب في أول عهدهم بالترجمة (الاسطرونوميا) . وبعد أكثر من قرن من الزمان استعاض بعضهم عن ذلك بمصطلح (الهيئة) في حين استعمل غيرهم مصطلح (الفلك) .وبقي كل ذلك حينا من الزمن قيد الاستعمال حتى طغى مصطلح (الفلك) على المصطلحين الآخرين فأزالهما . فهل أثر كل ذلك في فحوى الموضوع ومادته ومقدار ما أسهم العرب فيه ؟ واستعملوا مصطلحي (الصنعة) و (الكيمياء)لمدلول واحد مدة من الزمن ولكن الاستعمال هو الذي أبقى (الكيمياء) وأزال (الصنعة) . ويستعمل في بعض الاقطار العربية اليوم مصطلح (الطبيعة) في حين يستعمل في أقطار أخرى مصطلح (الفيزياء) . ولكن هل من المصلحة حقاً أن نستمر في التعليم بلغة أجنبية كالانكليزية أو الفرنسية وأن نبقى ننتظر الى أن تتمكن سلطة جبارة من ازالة أحد هذين المصطلحين وابقاء الآخر قبل أن نعرب التعليـــم . لابد أن مثل هذا الانتظار سيطول كثيراً ولا يعود بالفائدة .

ويكرر بعض الذين لم يتقنوا العربية ولم يتعرفوا دقائقها اتهامها بالقصور عن التعبير في مجالات العلوم والحضارة. لقد فات هؤلاء أن اللغة العربية أقدر على التعبير العلمي من كثير من اللغات التي آثرها أهلوها في الاستعمال على اللغات الاجنبية ، وأنها أغنى في مجالات الاشتقاق والمجاز والقياس من أكثر اللغات الاجنبية الحية .

وقال بعضهم بأنها لم تتطور بعد لكي تصلح لتدريس العلوم المتخصصة . ولكن أنّى للغة أن تنمو وتتطور لتصبح لغة علمية اذا لم يعمل أهلوها على تطويرها وتطويعها لهذه الاغراض بالاستعمال ؟ فالاستعمال وحده هو الذي يكيف اللغة لمقتضيات العلوم ويستحدث المصطلحات للتعبير العلمي ويوحدها على وفق قانون البقاء للانسب .

لو أردنا حقا تشخيص أهم مشكلات التعريب لوجدناها تكمن في عدم الايمان بأهمية القضية من ناحية ، وفي تخوف بعض مدرسي الاختصاصات العلمية ، وأكثرهم قد درس بلغات أجنبية ، مما قد يسببه لهم التعريب من عناء في مرحلة الانتقال .

ولسنا هنا في صدد اعادة الكلام على أن التعريب ضرورة قومية وحضارية يحتمها كون لغتنا عماد استقلالنا الفكري والحضاري وأهم مقومات وحدتنا القومية. فقد تكرر ذكر هذه الحقائق حتى لم تعد خافية على أحد أو قابلة للمناقشة . ولكن هذه الضرورة القومية تستلزم أن يبذل لها بسخاء ، وتستدعي من المسؤولين في كل قطر عربي اصدار قرارات حاسمة في التعريب تلتزم هيئات التعليم العام والتعليم الجامعي والتقني المضي قدما فيها وبذل كل ما تتطلبه من جهد وطاقات . وحريّ بالاقطار التي لم تبدأ تعريب التعليم حتى الآن أن تفيد من تجربة الاقطار التي سبقتها في ذلك ، سواء أفي اساليب التنفيذ أم في الاستعانة بالكتب العلمية العربية التي اصدرتها تلك الاقطار تأليفاً وترجمة ، أم في تبادل الاساتذة معها واستزارتهم منها للافادة من خبراتهم وتجاربهم .